زوايا

- غريب عسقلاني
- زكي العيلة
- أحمد رفيق عوض
- سليم النفار
- علي العامري

نشيد الفراش

غريب عسقلاني*

-I-

ما الذي يعطي الرأس العارية قوة الاندفاع، هازئة، تعترض شظية الصاروخ..؟!
وأية طاقة تمكن الجسد من حمل طاسة الجمجمة الطافحة برغوة الدماغ المتخثر عند سر الموت؟!
من الذي قدّر على الأب رصد دم ابنه، يفور من ثقوب طفولته الطازجة؟
ومن الذي لوّن البهاء بالأحمر القاني، كي تزعنف الروح بشوق يثير الدهشة حتى النحيب؟
وكيف يتماهى النحيب مع الأفق
وفي الأفق غيوم غضب تفجر الحقد في مدارات الغبش.
لا تخطئ الغيوم الحبلى بالشهداء المسار، والطائرات ترشق أديم البشر ووجه الحجر.
من الذي يجعل الأمهات يتوشّحن بالسواد لحظة ميلاد الفرح؟
مخاض هو أم صيرورة الفناء والعدم؟
شهيد هو أما نافورة صديد وإجهاض حمل؟
عزيز هو أم فرخ غراب استعصى ريشه على عبق الحنّاء وطيف النرجس؟
سؤال هو حتى يصير الجواب

-II-

الشوق أم العشق أم الجنون، يسكن المسافة بين حدي معادلة لم يكتشفها عالم، ولا فكر فيها فيلسوف، ولا حتى تراءت لقديس متمرد.
هي المعادلة، السؤال..

كيف يستدعي الحجر حتى الغواية، قذائف الصواريخ وطائرات الأباتشي السوداء وجنازير المدرعات، وربما القنبلة الذرية المتحفزة في مفاعل ديمونا..
هذا جنون أم قدر؟
الأطفال ما شبعوا من صدور الأمهات، والسنون عجاف ما زالت.
الأطفال يطاردون جنرالات القوة الرابعة في العالم، والأولى في الحقد، وصاحبة الأرقام القياسية في هندسة المجازر.
هذا سؤال والجواب لم يكتمل بعد..
أية قداسة، وأية تراتيل وأناشيد تلك التي تنبثق في زمن موت حكام العرب في غير مكان، وزمن ميلاد المشهد في هذا المكان..
هل هو زمن الشهداء
والوقت موت بين موتين
موت ليل مع ميلاد شمس الدنيا، وموت نهار يسرب العتمة التي تغلف الأهداف أمام المقاليع والمدى وعد ومواعيد..

-III-

المواعيد جنازات الشهداء– موت الأقمار وانبعاث الشموس.. والوعد أطفال عشاق يتواعدون عند محاور الاشتباك يبحثون عن صيد.. فيلتقون على دكك النعوش المحمولة فوق الأكتاف، يرقصون على إيقاع النشيد موتاً واشتياقاً للأرض..
والأرض رحم يُخصّب كل يوم، بشرى وبشائر أجنة تحمل راياتها ووصاياها قبل أن تتذوق حليب الأمهات.
الأجنة الطازجة رضعت وحتى الثمالة نشوات الشهادة لا يدركها زمن الأغبياء والجهلاء والجبناء والمتقاعسين..
الأجنة تحفظ نشيد الشمس التي تعرفت عليها قبل أن تغادر عتمات الأرحام.
وعد أم ميعاد..؟
بداية الأشياء أم نهاياتها
والمسافة بين الرحم والرحم قصيرة قصيرة
الأم تحبل لتلد، والأرض تأخذ لتعطي رحيقها إلى جذور الزيتون المقدس يضيء قناديل الليل..
هل ينتبه الناس من غفوتهم؟
هل يدركون آلام مريم العذراء ويرهفون السمع لأذان بلال، هل يتذكرون ما حفظته العهدة العمرية، وهل يؤمنون بأن البراق قد استحال بقدرة القادر إلى حجارة مسنونة مكوّرة في قبضات الأطفال، وعلى رقعات المقاليع المأخوذة من أردان ثياب الذلّ والخنوع وبطاقات الإعاشة.
هل يدرك الساسة والجنرالات معاني زمن الشهادة، وأريج الشهداء..

-IV-

حدثت الفراشة مياسم نوّار اللوز قبل أن تتزود بالرحيق..
حدثت الفراشة وكانت حزينة حتى النحيب..
مخذولة حتى جفاف الدمع..
قالت الفراشة ابنة الحرير:
انحنت أعناق النرجس، توسدت أوراق الحنّاء تستدعي عجينة الخلود، ونسيم الروح ورشفة الوجد.
وكان الوقت اشتباكا
يتماهى الوقت مع صيرورة البقاء، تشتعل الدرّة
درّة الروح المتسربة من ثقوب الجسد المذعور، المتشبث بأبيه خلف ساتر لا يستره من ضخ الناب النابت من غدة حقد أزلية.
كان الوقت اشتباكاً وموتاً..
توسّد الطفل فخذ أبيه لينام، بل ليهيئ وسادة للروح الصاعدة على أرجوحة الفرح، تتزوّد بحصوات سبع، هي كل ما تبقى في الميدان..
رشقة حقد أم رشقة موت آخر، والساتر لا يستر، والطلقة تبحث في خاصرة الأب عن مقتل، قبل أن يشهق روح ولده وتتوه منه المرئيات، قالت ابنة الحرير الفراشة:
أخذت الروح الطفلة تغزل شرنقتها الحريرية، بيضاء بيضاء تخترق الغيمة، وترجم قبر يوسف، وتدور حول قبر راحيل قبل أن ترحل وقبل أن تفيض الرحمة وتأخذ الأب إلى الغيبوبة.
قالت الفراشة:
أن تصدقوني، هذا شأنكم
الروح توهّجت وأعلنت أنها رجمت بحصواتها السبع مزارات الحقد وقبور التوراة المدسوسة على سموم الموت والدمار.

-V-

وقالت الفراشة:
أن تصدقوني، هذا شأنكم..
في زمن الاشتباك اشتاقت براعم اللّوز قبل مواعيدها، تفتحت، وزودتني بأسرار الرحيق، سألتني الأجنة وقد اقتربت من الفحولة قبل الميلاد:
ما الذي يستدعي الأرواح في زمن الحصار
قلت ولم أحبس دموعي
هذا حريري الذي يستدعي الأرواح، ووسائد مخملي المأخوذ من خدود البتلات الندية طراوة وحبل سرة للعشق.

أنا دودة الحرير، أضع من رحيق الأزهار والنوّار خيوط شرنقتي، لتأخذها مغازل القديسات والأميرات والحوريات، تصنع منها حرير الرايات، والأعلام، والأكفان للشهداء ووسائد الملائكة.
تحفّزت البراعم، اشتعلت بياضاً في السهل والوادي وعلى سفوح الجبال التي وطأها ابن العذراء حافياً يبشّر بالسلام..
هل تدركون ما معنى أن تشتعل الكروم نوّاراً في غير مواعيدها..؟
هذا حرير الأرواح الطازجة الصاعدة إلى مخمل الخلود..
وهذا رحيق الأرض ترضعه لأحبابها الصغار، تغسل عنهم ما علق بأجسادهم من نجس القذائف وزنخ البارود المحمص بالكراهية للناس وللأنبياء..
قالت الفراشة:
هل تدركون رقصات الفراشات في زمن الحصار؟
هل تعلمتم سرّ الموت والرحيق والحرير واشتعالات الأجنّة في البراعم قبل غفوتها؟

-VI-

سلام علينا
سلام عليهم من أصيبوا عند عتبات الشهادة
رأيت ما رأيت لعلكم تفقهون وتصدقون
رأيت روحاً ما زالت ساكنة في جسد طريح، فقأت الرصاصة العين وما غامت الدنيا أمام الروح.
طاش طيشهم..
أخذت الرصاصة قنديل العين ولم تطفئ المشهد..
قال الطفل المتكئ على ابتسامته المحيّرة:
– أنا الذي فزت، فقد أغلقت عيني على المشهد..
بحر من الدماء، ترفرف فيها العصافير، تقودني إلى دروبي، هازئة بمن أطفأوا قناديل النهار فيّ
قالت العين المطفأة للروح التي تحررت من إطارها:
– ما الأمر؟
نهضت العين على عتبة الرغبات العاجلة، تتهيأ لاستقبال السرّ، تصعد من عتبة الإسراء ولا تعود، تأخذ موقعها في مدارات الكون، تسبّح باسم خالق الكون وترصد الليل والنهار، تدفع النور إلى قلب العتمة فيكون الضياء..

-VII-

أيها الضياء.. الألق.. الوهج
يا مصابيح الأرواح المتربعة في مداراتها حول كرسيّ العرش شهيدة وشاهدة على اللعنة الأبدية..
سلام عليك

سلام إليك ومنك
فهل تهنئين..؟

*** روائي فلسطيني يقيم في غزة.**

مسبحة الحجر

زكي العيلة*

لم تفاجئك ثورة الحجر، وانتفاضة المقلاع، لم يباغتك هدير الدم الممتد من عروق عيبال إلى مطار غزة، وهل تباغت مواسم الحطة والعقال المتصلة المتتابعة مواقيت الشهداء الأحياء، الشهداء الباقين!
كنت ترى دمك الفلسطيني راكضاً يدق الأبواب غير آبه برغو الكواليس الرطبة، ومنصات المهرجانات، ورغاء المطبِّعين، المتبعين التابعين، دمك هو مكاتيبك في وجه الوافدين من خلف المحيطات، من آخر جهات الأرض يسدُّون عناوينك بأنيابهم، يشوونك بلهيب داناتهم، يخلعون شعرك وأظافرك، يصادرون النوافذ والأرصفة، تصبح حتى أحلام أطفالك بحاجة إلى تصاريح مرور منهم، ينثرونك أشلاء وفتافيت مشفوعة بالفيتو الأمريكي الجاهز الناجز دوماً ثم يطلبون منك صك صلح، وبيعة سلام..
فما الذي تبقى لنا غير دمنا في عالم لا تحركه إلا منافعه، عالم لا يرى إلا من خلال ثقب إبرة مصالحه، عالم يروج روايات بني إسرائيل، يبيعون أمك، وشقيقتك وزوجتك وحبيبتك لأنهن يبعثن أبناءهن، أحبابهن، قطع لحمه إلى محاور المواجهة كي يتصدروا ماكينة الإعلام، يحاولون أن ينزعوا الإنسان من إنسانيتك، أن يسوِّقوك للعالم آلة صماء عجفاء، وأنت الذي لم تهب إلاّ دفاعاً عن باب بيتك.. وحجارة حارتك.. وهل بطرت ساحات النزال يوماً عن غرفة نومك.. عن مقاعد صفك.. عن أرجوحة روضتك؛ هل نزلت عليهم من كوكب آخر أم أنهم هم الذين يحتلون برّك، وبحرك، وسماواتك، وموطئ قدميك؟ هم الذين يسلبون الهواء من رئتيك؟
فلا وقت للتردد.. لا وقت للتحسر.. لا وقت إلا لتراويد دم الشهيد تروض النيران والدخان على بوابات رام الله وجنين ورفح والخليل، لتنقش تاريخاً آخر فوق الحيطان المائلة، حيطان قبائل الشجب المبعثرة التائهة.. تاريخاً تصنعه مشيئة الشهداء، مشيئة الحراس، العشاق المنتشرين على جسد الرمل، والرمل

متراس الوطن الباقي..

* * *

هل فاجأ الموت أجمل الفرسان، هل فاجأت قذيفة الغزاة عنق «فارس عودة» في معبر المنطار بطلاً قادماً من رحم الحقيقة لا الأساطير، مكشوفاً في مواجهة دبابات بني إسرائيل إلاّ من أصابع يديه الطريتين، مسلحاً بحصى الأرض ومسبحة الحجر، يكرّ ويفرّ، ويدور بها مشحوناً بوصايا القصائد، وزغاريد الحساسين، يشق باطن الأرض عنقاء تأبى أن تُصاد.. تأبى اللحم، تأبى الهدم، فتصغر أمام خفقات ساعده الغض ماسورة الدبابة.. تتضاءل أمام وجهه الصابح شفرات جنازيرها، ينزرع فوق أرض المنطار مخارز تفقأ عيون قناص ينتشي بتفجير رؤوس الأطفال، ونعش سيدي الشيخ «علي المنطار» يفلت من بين أيادي المشيعين.. من فوق أكتافهم.. يجري في السماء بقعة نور تتخير تربتها، مكان نومتها.. في أعلى بقعة في غزة.. تلة المنطار، وفارس يتخير المنطار متراسه الأخير، معبره الأخير، يرمي إلى كل الجهات، راضعاً من بز أمه.. يمضي إلى الكف الذبيحة فتنبثق شجرة سدر من منابت لحمه النازف.. من منابت العظم المفتوح.. تتهاوى قرب رأسه فيئاً وزاداً..

يا سيدي علي المنطار، الدبابات تفتك بضريحك، الطائرات تغتال أجمل الفرسان، حماة قبتك، عزَّ الغطاء يا صاحب الكرامات فهل تطير ثانية غمامة ظل وسكينة؟ وفارس هناك في المنطار، قامته أسماء الناس، يعرفه الغيم، وكل نواطير الوطن، فهل فطنوا للمحبين المتعبين يمشون على قدميه النازفتين، هل فطنوا لك تمشي على أقدام الناس جميعاً؟

يا وردة الأحباب.. أول الأزمنة أنت.. أول الأشرعة الطالعة من الجمر أنت.. هم المرعوبون لا أنت، الغزاة المدججون بآلات الذبح والقتل مفزوعون من وقفتك مسلحاً برائحة الشمس، تنبت أرغفة في ليل المنفيين عن شجر الوطن، تتلو أحسن القصص ولو كره الكارهون.

* * *

نعتذر لكم يا أطفال فلسطين.. نعتذر لفارس عودة.. لمحمد الدرة.. لمؤيد الجواريش.. لسارة عبد الحق ابنة العامين.

نعتذر للفراشات التي لم تغادر الأقمطة، للأمنيات باقتناء كراسة رسم أو كرة ملونة.. ولكن كيف السبيل وأنتم محاصرون بديفيد، ومردخاي وباروخ يسدون الأرصفة بأنيابهم، يشوونكم بقذائف المروحيات.. يمنعون الهواء والماء والتقاوي عن أكفكم الطرية.

نعتذر لكن وأنتم تحلمون بالعودة إلى مقاعد الصف.. إلى علب الألوان، والمساطر والمحابر، تداعبون أعشاش العصافير بعيداً عن رصاص الغزو. نعتذر لكم، لكغكغاتكم المحظورة، لنومكم بعيون مفتوحة خوفاً من أفاعي صهيون التي تلاحقكم، تنهش لحمكم.. تلعق دمكم في انتشاء.

هل نلبس أثواب الحداد؟؟ نمتهن العويل والحملقة؟ نكتفي بأكوام الشجب؟ نقايض لبيب والمعتصم؟ نستجير بزفرات دمع أبي عبد الله الأمير وهو يسلم مفاتيح غرناطة صاغراً لفرديناند وإيزابيلا؟ نسوق له العذر ونحتمي بقصائد الخنوع والتروي؟

يا أطفال أمّة العرب:
املأوا حقائب البريد بالمكاتيب المغموسة بمداد القلب، سطروا البطاقات، انسجوها كلمات تتشهى رائحة القدس.. أرسلوها إلى عنوان محدد، إلى أطفال فلسطين: فارس، محمد، مؤيد، سارة، إلى ساحات الأقصى، فقد تكون مكاتيبكم أنتم (لبيك) المعتصم في مواجهة طاغون بني صهيون..

---

* روائي فلسطيني يقيم في غزة.

زوج نعمة

أحمد رفيق عوض*

-I-

يبدو أنني سأروي كل شيء كما هو، إن «ما هو» هذا، لا يحتاجني لأن أجمله أو أزيد عليه أو أنقص منه، إنه هناك، طازج، ساخن، له لغته وعالمه ومكانه وزمانه، وليس لي منه إلا أنه جزء مني.. وأترك نفسي له.. لكامل الحكاية.. يبدو أننا أيضا نحتاج إلى شجاعة لمواجهة الحكاية، ألا تشكل صياغة الحكاية وقولها وعيا لها وبها؟

-II-

كان مساءً يذكر بنهاية العالم، بالغيوم البرتقالية والحمراء، والرطوبة الباردة تخترق العظام، والرياح الهوجاء انفلتت من عقالها من كل مكان.. في ذلك المساء ذي النذر، قتل المحتلون، لبلادي، سبعة من أبناء شعبي.. السبعة لهم أسماء كاملة غير منقوصة، ولهم من يبكي عليهم، ولهم من يدفنهم، ولهم من يعلق صورهم على الجدران، ولهم من يشق ثوبه على التلال المقدسة، ويصرخ من قحفه: لكم المجد والخلود! لم يكن السبعة مسلحين، كانوا يرغبون، فقط، بالتنقل، من بلدة إلى بلدة، دون أن يسألهم أحد ما، عن أوراق ثبوتية، كانوا يرغبون بالسهر، إلى ما بعد منتصف الليل، دون أن يخشوا دورية، كانوا يحلمون بأن يتركوا مصابيح البيت الخارجية مضاءة، دون الخشية من قصفها. ولكنهم قتلوا بين أعشاب بلادهم، قبل تحقيق ذلك! سقطوا على التراب العتيق، الذي ناداهم ووعدهم بالترفق بهم، لم يحلموا يوماً، بأن يرفعوا على آلاف الأكف الهادرة، ولم يحلموا يوماً بالشهرة، ولم يحلموا بكل هذا المجد، وهذه المهابة، حلموا بأشياء أقل، حلموا بمتع أبسط بكثير..

يا أنتم!! أيها السبعة الذين استرحتم على الأرض.. لماذا أبكي من أجلكم الآن، لماذا يقشعر بدني، وأنا

أكتب عنكم.. لم أعرفكم في حياتكم، ولكنني الآن أعرفكم واحداً واحداً.. أعرف ما تحبون، وأعرف ما حلمتم به، أكاد أشم رائحة عرقكم، أكاد ألمس أياديكم البيضاء.. يا أنتم.. ما طعم التراب الذي احتضنكم؟! وما طعم الرصاصة التي اخترقت قلوبكم؟! قولوا لي، كيف استقبلكم ربكم؟! كيف خلعتم لحمكم وذهبتم؟! كيف شاهدتم بلادنا من فوق؟! أليست رائعة!! ألا تستحق.. قولوا لي.. هل تستحق!! قولوا لي لماذا نتواضع أمامكم؟! لماذا نشعر بالصغار أمامكم؟! يا أنتم.. كل الملأ أنتم.. هكذا، سعى دمكم إلى قاتلكم، ملأ الأفق أمامه، غطى يديه وثيابه ومرآته وأديم أسلحته، دفعه إلى الجنون واليأس.. الدم يدفع إلى الجنون واليأس.. الدم يدفع إلى الدم.. وأمامه تنكسر، وتتشظى كل المقولات الناصعة.. وإلا لماذا يقال: إن التاريخ يكتب بالدم! أليس لأنه يجترح مقولاته المعمدة بأقصى ما هناك من ألم وعذاب..

أحبائي السبعة الذين أعنيهم، واكتب عنهم، لم يعرفوا كثيراً عن التاريخ، فهم لم يكملوا تعليماً، ولم يكن لديهم وقت للقراءة، كانوا عمالاً في ورشات المحتل ومصانعه.. ذهبوا سريعا إلى مسؤولياتهم التي ألقتها عليهم عائلات كثيرة العيال كثيرة المطالب.. الاحتلال لم يترك لهم أو لعائلاتهم التطور الطبيعي أو الحياة الطبيعية، الاحتلال يطلبنا، إما عمالا أو موتى.. هذا هو الاحتلال وهكذا يبقى وهكذا يزول..

أحبائي السبعة الذين أكتب عنهم لم يعرفوا من التاريخ إلا أبسط قوانينه وأكثرها قوة.. الموت من أجل الوطن!! يا الله.. يا الله.. أقوى المقولات أبسطها!!

-III-

كان مساءً يذكر بنهاية العالم، بغيومه البرتقالية والحمراء، ورياحه الهوجاء، عندما قالت لي زوجتي: هل سمعت؟ زوج نعمة استشهد!!

زوج نعمة كان، إذن، واحداً من السبعة الذين قتلهم محتل بلادي؟!!

أضافت زوجتي: لقد اتصلوا بي من «البلد» وأعلموني بذلك!! وتبكي..

عندما نتكلم عن الشهداء، فإننا نقصد أنفسنا، شئنا ذلك أم أبينا، شهداء الوطن هم أنت، بمعنى من المعاني، تشعرهم هكذا، قريبون منك، تعرفهم، قابلتهم في الطريق أو في بقالة الحيّ، أو في ردهة بريد، أو مؤسسة ما.. هم، هذا الوجه العادي الذي يقابلك، أنىّ ذهبت، في أرجاء الوطن.. ومن عجب، أنهم يضعون بين يديك جغرافية الوطن، دفعة واحدة.. الشهداء هم «الجماعة».

أكملت زوجتي: سألوني إن كنت ستذهب لتشارك في تشييع الجثمان!!؟

قالت زوجتي ذلك وكأنها تحثني على الرفض.

قلت وأنا أغالب كمدي: رام الله محاصرة..

سكتت زوجتي وكأنها استراحت، وخلصت ضميرها من نقل الرسالة، ولكن، ولسبب ما، قالت: ولكن طريق بيرزيت– جفنا مفتوح، وتستطيع أن تصل نابلس.

قلت لها بما يشبه الغضب: هناك حاجز إسرائيلي في عين سينيا، وآخر في زعترة، وبهذا، فإن الطريق إلى نابلس مقطوع تماماً..

قالت بما يشبه الغضب أيضا: ومن أعلمك بذلك؟

قلت بما يشبه الصراخ: ألا تعرفين أن زوجك يعمل صحفياً، وأنه بسبب قطع الطريق، لا أستطيع أن أشارك في جنازة زوج نعمة!؟

نحن، أنا وزوجتي والشهداء السبعة، وثلاثة ملايين فلسطيني آخر، نعيش تحت احتلال، يقطع الرقاب ويقطع الطرق، ويقطع الماء، ويقطع الكهرباء، ويقطع أسلاك الهاتف، ويقطع أشجار الزيتون.. ويقطع كل ما يريد أن يقطعه.. لم أحتمل.. ترقرقت الدموع في عيني، حسبت زوجتي أنها كانت قاسية في إلحاحها عليّ، قالت بصوت رقيق: لم أقصد.. أقصد أنك تحب نعمة كثيراً.. وربما تفتقدك..

ترقرقت الدموع في عينيها، توارى كل منا عن الآخر.

يا نعمة! لم أستطع أن أشارك في تشييع جثمان زوجك، اغفري لي ذلك.. أعرف أن قلبك العذب مزدحم بالفاجعة، ولكن اسمحي لي أن أستعيد كل التفاصيل.

-IV-

نعمة، ذات وجه أسمر، لا وسامة فيه، وقامتها قصيرة أقرب إلى السمنة، يتيمة الأم والأب منذ أن كان عمرها ثلاث عشر سنة.

نعمة، لم تتميز بشيء أبداً، سوى أنها حافظت على اسمها وشرفها.

نعمة التي قضت معظم وقتها، في بيت عمها، لم تقبل أن تتزوج من ابنه المقعد، فقد اعتبرت أنها تستحق مستقبلاً أفضل.

نعمة رفضت أن تساوم الشفقة عليها، بالشفقة على ابن عمها، نعمة اعتبرت أن عواطفها حرة، وأنها ستمنحها لمن ترغب به.

نعمة لم تتلق عطفاً من أشقائها، أو من زوجة أبيها.

نعمة عرفت أن الحياة قاسية جداً، تمنحنا بقدرة جهدنا، أما الحظ، فلا تعرفه. نعمة فكرت بالزوج والبيت والأولاد، ولكنها اعتبرت ذلك ترفاً.

نعمة، الفتاة اليتيمة الفقيرة، التي لا تتميز بجمال أو بمال، أو بتعليم أو بعائلة، قبلت أن تتزوج شاباً من غير «البلد»، رغم أنه يعاني من حدبة خفيفة في ظهره.

نعمة رأت هذا الشاب، عندما جاء يخطبها من عمها، رأت قامته القصيرة، ورأت حدبته الخفيفة، ورأت الرجاء في عينيه، رأت قلقه واضطرابه ولهفته، فمس ذلك قلبها.

نعمة، التي لم تلمس رجلاً قبلاً، انجرت عواطفها مرة واحدة، شعرت نعمة أنها تريد هذا الأحدب.. صار عالمها مختلفاً، ولأول مرة، عرفت أن هناك من يدبر لنا الحياة بعيداً عنا.. وقريباً منا.. في آن معاً.

نعمة، التي وافق الجميع على تزويجها بسهولة ويسر، انتقلت بسرعة إلى بيت زوجها، في البلدة المجاورة.

نعمة، قبلت يدي زوجها، وبكت قليلاً، صلّت كثيراً، شعرت بالانتصار والزهو والفخار، صار لها زوج وبيت، تلمست شاربي زوجها، ويديه وكتفيه، قالت له دون صمت: أعبدك.. أعبدك..

نعمة، التي لا تعرف كيف ترضي زوجها، ولا ما يرضي الرجال ويسعدهم، استطاعت أن ترضي زوجها

وتسعده وأن تنسيه حدبته، قالت له: أنت أعظم الرجال.. أنت أجمل الرجال.
نعمة، الفتاة التي لا تتميز بشيء، استطاعت أن تجعل من بيت زوجها جنّة بالدخل القليل، والأثاث الفقير، والحجرتين الضيقتين.
نعمة، اكتشفت أنها تستطيع أن تفعل كل شيء، ان تزرع مساحة الأرض الصغيرة في الفناء، وأن تخلّل كل ما يقع في يديها من خضراوات وأن تجفف وتحفظ أشياء أخرى للشتاء، وأن تربي الدجاج والأرانب والبط، وعنزة وسخلتها.
نعمة، وعندما تحرك جنينها في بطنها، سجدت على الأرض تشكر خالقها، ولما وضعت طفلها، أحست أنها ملكة لا يدانيها أحد في سعادتها.
نعمة، لم تجد اسماً غير اسم زوجها، لتسمي به طفلها.. شعرت أن هذا من حقه، وأن ليس هناك في الدنيا، من يستحق اسم طفلها غير زوجها.
نعمة، التي استغرب الناس تصرفها هذا، ردت بالقول: طفلي زوجي.. زوجي طفلي.
نعمة، التي ودعت زوجها صباحاً، ليذهب إلى عمله في ورشة إسرائيلية..
نعمة، هذه، استقبلت زوجها بعد أقل من ساعتين.. ميتاً.. ماتت يداه.. مات شاربه.. ماتت ابتسامته.. ماتت رائحته.. ماتت حدبته..
نعمة، لم تفهم بادئ الأمر، لم تدرك أن زوجها، قصير القامة، ذا الحدبة الخفيفة، قد مات إلى الأبد.. ولما اكتشفت، كان ذلك دفعة واحدة، ودفعة واحدة غابت عن وعيها..
نعمة، يا للقلب الغافل العذب! يا للسيرة البيضاء! يا للمرأة العادية! التي تصنع بيديها كل ما هو غير عادي!! نعمة!! استيقظي، زوجك يناديك.. إنه يرغب بمحادثتك قليلاً.. تقوم نعمة.. تجلس بين يدي زوجها.. ولكن الناس يأخذونه بعيداً، إلى سفح قريب مزدحم بأعشاب قاسية.. لم يترك الناس لنعمة، أن تجلس بين يدي زوجها قليلاً.. ذهب الرجل.. بقيت المرأة.. ليس هناك من حقد أكثر من هذا..

-V-

الرصاصة كانت العلاقة الوحيدة، بين زوج نعمة وقاتله المحتل، زوج نعمة كان يحلم بيوم أفضل، عندما قتل. القاتل كان يحاول إكمال صورة شعرية في خياله، عندما أطلق رصاصته، كان يريد هذا القاتل، أن يرى شخصاً يعاني سكرات الموت، ليقول شيئاً حقيقياً عن الموت.

-VI-

الرصاصة التي شكلت علاقة غير متكافئة، وغير بشرية، بين زوج نعمة وقاتله، المحتل الشاعر، صنعت في شركة أمريكية بريطانية، وهدفت إلى الجمع بين القتل وبين تجنب سفك الدماء، وكان ذلك تحت إلحاح أنظمة ديكتاتورية وفاشستية في أفريقيا وآسيا وبعض أجهزة الشرطة والأمن الأمريكي والبريطاني، التي لا تعرض نفسها للنقد المحلي أو الدولي. وقد استعملت لأول مرة هنا.. في فلسطين.. وبالذات في جمجمة زوج نعمة.. حيث تفجر رأسه تماماً.. تطايرت أحلامه مع نثار دماغه.. نجحت

الشركة الأمريكية البريطانية في هدفها القريب.. ولكنها لم تعرف أن نثار الدماغ الذي كان يحلم بنهار أفضل، انبثّ تحت كل فتفوتة شجرة خضراء، ثمارها مصابيح قوية، تضيء البلاد، من نهر الفرات في العراق إلى نهر الربيع في المغرب.

-VII-

الجندي القاتل، كان في الخامسة والثلاثين من عمره، يسكن في «موشاف» جنوبي بئر السبع، ولم تمض على خدمته الاحتياطية، سوى أسبوع واحد، حتى قذفوا به إلى هنا، بعد اندلاع «الاضطرابات وخرق النظام».. اسمه «حزقل»، من أصول عراقية ويمنية، لم ينجح في حياته كشاعر، ولم ينجح كزوج، ولم ينجح كصاحب عمل، ظل هكذا يتردد على المقاهي والنوادي والجماعات الأدبية، دون أن يتم الاعتراف به، في نهاية الأمر، وحتى يقنع زوجته أنه مفيد، فقد انضم إلى حزب يميني متطرف متعدد النشاطات والفعاليات، كان الحزب بحاجة إلى أمثاله للدعوة له في «جنوب البلاد»، وكان هو بحاجة إلى الشعور بقيمته، فصار ينشر قصائده في جريدة الحزب الصغيرة الأسبوعية، وصار يمشي في الموشاف شاعراً بأهميته، وعندما قيل له إنه يصلح كعضو كنيست على سبيل السخرية، طاش صوابه وصار يحلق شعر رأسه على طريقة بعض أعضاء الكنيست المشهورين.

وعندما استدعي للخدمة في «يهودا والسامرة»، كان يحلم بالمجد السياسي والمجد الأدبي، لم ير الناس الذين يرجمونه بالحجارة، ولم يشاهد دموعهم أو ألمهم، ولم يفهم لماذا يصرخون ضد وجوده، فهو يشعر بقرارة نفسه أنه خاص جداً، متميز جداً، رحيم جداً، متفهم جداً، شاعري جداً، وأن المشكلة متعلقة بهؤلاء الذين يقذفون الحجارة، فهم لم يصلوا بعد إلى اكتشاف روعته وخصوصيته، وفي لحظة ما، كان حزقل يعتقد أن هؤلاء البشر، لا يتألمون كما يتألم، ولا يشعرون بالحرقة أو لوعة الفقدان، أو طرب الموسيقى، كان يشعر، لوهلة ما، أنهم يتنادون إلى الموت، كما يتنادون إلى وليمة شهية، لم يشعر بالشفقة أو التفهم، كان يتصيد الصور الشعرية العجيبة، ليكتبها في جريدة الحزب، كان يريد أن يثبت تميزه، في مواجهة هؤلاء.. كان يريد أن يكتب القصيدة، وأن يدخل الكنيست.. ولا شيء آخر.

-VIII-

زوج نعمة، خرج صباحاً، إلى الورشة الإسرائيلية، التي يعمل بها.. قرأ آية من القرآن تحميه من أولاد الحرام والشياطين..

زوج نعمة، لم يكن في باله، إلا زوجته وطفله وبيته الصغير..

زوج نعمة، كان يعرف أنه يعيش في وضع صعب.. كان يعرف ما معنى الاحتلال، وما معنى الحواجز، وما معنى قطع الطريق..

زوج نعمة، كان يحب نعمة وطفله، أكثر من أي شيء آخر، في الكون..

زوج نعمة لم يكن يعرف، أنه سيكون هدفاً لقاتل شاعر..

زوج نعمة لم يكن يعرف، أنه سيكون حقل تجارب، لرصاص مطور جديد..
زوج نعمة لم يكن يعرف، أن دماغه سيتفجر بعد لحظات.
زوج نعمة شاهد دورية الجيش، على مدخل القرية.
زوج نعمة انقبض قلبه، تمتم بالشهادتين باعتبارهما طوق النجاة.
زوج نعمة تلقى الرصاصة بدماغه.
تطاير دماغه على الأرض، وبين أعشاب البلاد، تحت كل فتفوتة، نبتت شجرة خضراء، ثمارها مصابيح قوية أضاءت كل البلاد..

---

* روائي فلسطيني يقيم في بيرزيت.

سلالم للشتاء

سليم النفار*

ثمة ما يعتمل، في أفق اللحظة المباغتة، يقذف سلةً من الأسئلة في وجه البحر، النازل من ثقوب الفضاء، على وجه الأرض الفائزة.. ومن أين.. وهل تستطيع الورود لملمة الربيع؟؟؟
وهل تستطيع الأصابع، الإفلات من ثلجها الحار، لتنفض غبار الحروف الصامتة؟
ربما.. ربما يستيقظ الشعر على البياض المخيف، عصافير تبحث عن أعشاشها، في دوّامة الريح الآيل فوق الجهات كلها.

أيّ الكلام يليق..
يا درة الفجر الذي،
يحبو على، وجع يفيق؟
هذي حرائقهم، تطاردنا... ونسكنها،
ففيها روحنا وهج عقيق.

وثمة خوفٌ... لكنه البهاء، يفتش عن سدته... مترنحاً بالدماء، وغبار الأزقة، المكتظة بالدموع الحارة والأسئلة.
أيّ أسئلة تستطيع اجتراح علاماتها الفارقة؟
أيّ أجوبة تليق.. أو سوف تليق بهذا المشهد الأسطوري؟
عفواً.. على الأسطورة أن تحمل رموزها، كما حمل سيزيف صخرته.. علّها بالأعالي، تستطيع القبض على ثلج المعاني المغايرة، علّها تحفظ صورتها، فهنا.. كل شيء قابل للانكسار، والاندثار، هنا.. المعاني

لا تحمل ظاهرها البتة، بسيطة كالشارع المكشوف للقناص، سهلة كجداول الماء.. ولكن الذي تحت قشرتها، عصيّ على التفكيك والتوصيف، فها هنا.. على شرفة البحر الغزّي.. شرفة للسماء، يسمونها.. مفرق الشهداء.

ما ضرّها الدنيا،
لنا تأتي مفازات،
فهل.. ينجو بنا، هذا الطَّريق؟
أشعل.. وروداً هاجعة
واسق الذي هاجت به الذكرى الحريق
فلعلها تصحو مفاصلنا،
على نهرٍ، سيرفله الرحيق.

وحده هذا المكان، لا يحتمل اسمه التأويل، ولا يخفي تحت جلده.. شيئاً مغايراً، للذي يحدث الآن.. فدائماً كان لصيق اسمه. كلّ القادمين إليه، يحلمون بالصعود، على سلالم صيفه الحار... إلى شتاء يغسل ثيابهم المغبرّة، ويرطب أرواحهم العطشى.

فمن ها هنا.. من البعيد القريب، من أزقة جباليا، المكتظة بوحل الحقول، خرج «المقيد» عريساً لتوه.. لم يكتشف بعد طعم الحياة، قاصداً سلالم الشتاء، علّه يستطيع سحبها، يعيد الغيث، إلى رمال جباليا وتحت وطأة البحث عن المعاني الأكثر طزاجة، قفز السؤال إلى فمه: إنها جباليا، فهل يعقل لا شهيد فيها حتى الآن.. هكذا باح وجد العريس إلى عروسه، ليرتبك الفضاء بينهما، تحتهما وفوقهما.. ولكن «المقيد» لم يُطل المكوث تحت هذا الفضاء، فأردف قائلاً: لماذا لا أكون؟؟

فعلى الحدائق بلبل يصدح،
هنا..
وهنا، هناك الموعد المعقود
فأبشر..، صديقي،
شعرنا ما عاد أحلاماً تحيدُ
سنزف للبشرى قصائدنا،
وندلق في الهوا..
وجداً،
على حبر يميد.

وبينما كانت نغمات القصائد في أغاني التلفاز تعلو، محدثة القطيعة بين عهدين، عهد ما يسمى السلام، وعهد الانتفاضة الجديدة، كانت سمات «المقيد» تحملُ لوناً آخر من القطيعة.

ها هو العريس الطازج، لا تزال رائحة.. الكولونيا.. عالقة على ثيابه وعلى ستائر الليل، المعجونة بعبق القرنفل.. وها هو أيضاً.. حريق الشتاء.. هناك في المفرق المشهد.. هنا حيث أبواب السماء ترخي مزاليجها،

ليقفز الثلج إلى صدر البقاء.. نيازك، وأحلاماً ترشّ الأرض التي نمشي.. فأين يمشي هذا العريس.. وهل لنا هذا البهاء؟؟ بين هذا وذاك.. كان الذهول، سيد اللحظة، ينسج المجد أمام شريط من التداعيات لماضٍ، ربما قصير، ولكنه مزدحم بالفرح والأمل.

تداعيات ماض قريب، حيث كانت حقول جباليا، تخبئ بين برتقالها المواعيد البهية للعاشقين، وطين الحقول، لا يزال يحتفظ، بخطوات لم ترهق صدره طويلاً، تلك خطوات العاشق الذي كان يحلم بعرس بهيّ، عرس الانتماء، البقاء فوق تراب بلده، وقد كان ذلك العرس متمثلاً عند «لؤي» بحصوله على بطاقة الهوية الموشحة براية الحلم الطويل، أما وقد تحقق عرسه هذا، فقد أيقن «لؤي» أن في الطريق إلى جباليا، قرنفلة بهية لا بد أن تأتي، ليزداد العرس بهاءً، في الطريق الأخير للمواعيد، لا تزال النضاوة، تبحث عن قاطفها، تنتظر العاشق.. فهل يأتي؟

أي الكلام يعادل..

لا خوف ينبت في المفاصل،

لا.. .. ..،

وما كنّا على حدٍ نفاصل،

لكنه الورد الذي،

في شرفتي.. لم يسترح

والماء تخذله الجداول.

لم ينته صدى سؤاله، عندما كان يمشي «المقيد» حاسماً أمره نحو تجليات العرس الأبهى، تاركاً أغلال الحياة هذه، على أرضها، مطعونة بغبار الدنس الغريب، وليحلق عالياً في سماء الشتاء الذي حفر أخاديده عميقاً، حتى العظم.

هل ثمة درة أخرى؟

هكذا قال لنفسه، وهو يتهادى في دربه.. فلم يستطع البقاء كي يرى من نسله «درّة» أخرى تسيح على جهنم الأرض، فأمسك أجراس الغيم ليفتح نوافذ الشتاء..

هل ثمة بعد، ما يحتاجه البياض من شهادة، على اختلاف هذا الشتاء، وهذا الحبر، وهذا الوجد؟؟، وهذه الأزقة التي تجيء إلى بوابة المعنى.. أي بلاغة سوف تحملها؟

يا درة الأم المبرزخ في الهديل

طوبى.. لمسراك الذي،

ألقى على الدنيا الصهيل

ما نفع نجوانا.. هنا

والليل خلف الليل، والآتي قتيل؟؟!

لن تهدأ الأرض التي..

فاحمل ورودك صاعداً..،

واسق المدى
طوبى لوردك يا فتى
فجرت أضلاع الحنين.

2000/10/22

---

* شاعر فلسطيني يقيم في غزة.

أعلى من الكلام .. أعلى من الكتابة
الشمس تشرق من حجر

علي العامري*

الآن.. الشهيد يتلو على الحي نص شهادته بالرصاص «الحي»
الآن.. الجريح يكتب فصول ألمه في رواية فلسطين
الآن.. الشهيد الطفل محمد الدرة يختبر القارات كلها
الآن.. الأم تسقي بدمعتها شتلة الصبر الاستثنائي
الآن.. الشارع العربي يمرّغ «المخطط» بالوجل ويحرج الأقنعة
الآن.. يعرف دعاة «معرفة الآخر» أن العدو خارَج هذه المعادلة
الآن.. يرتبك «شرطي الكوكب» ومجندوه
الآن يتزلزل مهندسو الوهم
الآن.. فلسطين كلها نشيد واحد
الآن الوضوح واضح
والشمس تشرق من حجر

* * *

المشهد أعلى من الكلام.. أعلى من الكتابة
جسد يتقدم دفاعاً عن روح الأمة وشرقها وقدس أقداسها.. جسد في مواجهة عدو «مسور» بالحديد والوحشية والبطش.

هل من معنى أعلى من ذلك؟
الفلسطيني حر يحرسه مكانه ودعوات أمه، يحرسه الشارع والرصيف والشجرة والحجر، الفلسطيني حر لأنه أصبح يملك إرادته، في حين أن العدو مسور بالحديد، إنه عبد الحديد، مقيد فيه، ظاناً أنه يخفف من رعبه الداخلي، الذي يحاول تصديره إلى الخارج، لكنه عاجز عن ذلك، على الرغم من كل جرائمه التي ارتكبها ويواصل ارتكابها ضد الشعب الفلسطيني، لأن رهين الحديد لا يمكن أن يكون حراً.
يظن العدو الصهيوني أنه عندما يرى دم الضحية، يكون قد حقق انتصاراً. لكنه يعرف أكثر، في قرارة نفسه، أن العلم الفلسطيني لا يكتمل إلا بالأحمر.
الخوف داخل الجندي «الإسرائيلي» متجذر، لذلك أحاط جسده بالحديد، أطلق الرصاص الحي ليقتل الحي الذي ما إن تصعد روحه إلى الأعالي، مثل نجمة، حتى يصرخ وليد حي جديد، فيزداد الرعب في قلب من لا قلب له، والذي يعرف، تماماً، أن وجوده غير مشروع لا تاريخياً ولا جغرافياً ولا روحياً أيضاً.
يعرف العدو أن لا حق له في فلسطين، لذلك اتخذ القتل أرضاً له، واتخذ الخوف سماء له، واتخذ الحديد بيتاً له، واتخذ العتمة قلباً له.
وراح يطلق النار على الأطفال والأمكنة، لأن المكان ضده والحجر ضده والشجرة ضده والهواء ضده..
إنه المحتل والمغتصب وهو الوقواق الجديد الذي هاجم أعشاش الطيور الأخرى، يهجرها ويقتل فراخها أو يكسر بيضها ويلقي بها من أعلى الغصن إلى صلادة الموت، ثم يحتل أعشاشها.
ولكن.. هل يتمكن «الوقواق» أن يركن إلى طمأنينة من نوع ما.
لا يمكن لمغتصب أرض أو عش أو غصن أو حبة رمل أن يقطف ثمرة هدوء وراحة بال المغتصبة مرة، وكل أرض محتلة تتحول إلى جحيم تحت مغتصبها، ففعل الاغتصاب سم وجحيم يسريان في «جثمانية» الاستعماري.

* * *

الدم العربي الفلسطيني أعلى من الكلام وأعلى من الكتابة.
وعندما يعلو الدم، يتحجر الكلام في الحلق.. وعندما يتقدم الشهيد وراء الشهيد في قافلة المجد، تتحول أسطورة المعنى إلى أرض المعاني كلّها.
الدم أعلى.
والكلام ظلال
الحجر في يد طفل يقاوم، أعلى من الكلام، أعلى من الكتابة.
الحجر يرى.
والكلام أعمى.
من قال إن «الروح» ماتت؟ من قال إن الصمت من ذهب، ومن قال إن الحجر حجر؟ ومن قال إن الحلم هجع في وكر النسيان؟ ومن قال إن الجيل الجديد تدلى في بئر اللهو؟

كل هذا كان ظناً ووهماً، كل هذا كان قشرة لا حقيقة، كان وراءها مروجو الهزيمة الذين حاولوا جاهدين عبر آلاف الوسائل ترويج تلك البضاعة المختومة بـ«USA» ومن في أفلاكها هم سادرون.
كانت بضاعة الانهزام الداخلي وهماً، ولكن مروجيها غلفوها بأشكال وألوان متنوعة. ولكن الحقيقة، دائماً عميقة، ودروبها شائكة وصعبة. فالحقيقة تبقى حقيقة، على الرغم من طبقات اليأس التي تراكمت يوما بعد يوم بفعل يبدو مبنياً للمجهول، لكنه ليس كذلك أبداً.
ثمة مخطط لزراعة الإحباط حتى نجني ثمار اليأس والنزاع والذل المغلف بما يسمى «العلانية».
ثمة مخطط قديم، جرى تعديله من قبل مروجي الهزيمة بعد كل مرحلة فاصلة في تاريخنا الحديث.
تراكمت طبقات من رماد الإحباط فوق أرواحنا، كما تتراكم طبقات الغبار فوق مرآة، أو مثل طبقات الأرض التي تتأجج في قلبها صهيرة البركان، حيث الحقيقة تظل حقيقة: أرواحنا والمرآة والبركان.
وكان تحرير جنوبي لبنان مقدمة الأمل، التي كنست طبقات من الرماد، لتنجلي صورة الفعل التضحوي الفدائي، ويردد الوطن العربي نشيداً عالياً كان في زاوية أرواحنا. وعم فرح لم نألفه من قبل إلا نادراً.
لقد علمتنا انكسارات الحياة الاحتفاء بندرة الفرح. وها هو قد طل من أرزة القلب.
والآن نهضت عنقاء الروح العربية المقاومة في انتفاضة الأقصى، لتزيل طبقات الصدأ عن فوهة البركان، وتزيل طبقات أخرى من الرماد الذي راكمه مخططو الانهزامية، فلن يكون الصمت ذهباً ولا حديداً، ولن يطول تكميم الأمل والفعل والجنون. ولن تبقى الطبيعة صامتة، كما يسميها بعض الفنانين في لوحاتهم، وهي تسمية تم ترويجها وأصبحت متداولة، في حين أن الطبيعة لم تكن في أي لحظة صامتة، كما أن الفن ناطق دائماً، لأن الصمت مجاز.

* * *

الانتفاضة أعلى من الكلام.. أعلى من الكتابة.
ومضمون الدم أعلى من مضمون النص.
وكيف لا، والمنتفض يكتب بروحه وجسده نصوص تمرده وتحديه ومجابهته في كل لحظة.
إن أبطال الانتفاضة يكتبون بأجسادهم ملحمة الكرامة والعزة في ظل الموت الذي يأخذ شكل رصاصة صنعت في أمريكا، وبيد عدو مهنته الأولى قتل الأبرياء وإزاحة الحق عن جغرافيته التي تمثل مسقط روحه ومسقط رأسه.
المنتفض أعزل، لكنه مدجج بحب وطنه وبإرادته التي لا يثنيها رصاص الصهاينة ومجنزراتهم وقنابلهم، إرادة الفلسطيني الماسية، شفافة وصلبة، وهي إرادة تستند إلى التاريخ والجغرافيا والوعي، وتتقدم في أرضها ولأجلها، لتسترد سيادتها في المكان والزمان.
معاني الانتفاضة عميقة وكبيرة، إنها لا تشير إلى الحاضر فقط، بل تشير إلى المستقبل والسيادة عليه أيضاً. وهي تكافح من أجل الهوية العربية الفلسطينية في مواجهة «هوية» توراتية مزيفة تحمل عنوان الاستعمار والإلغاء والمحو.

المنتفض يتقدم بجسده في مواجهة آلات الظلامية والقهر. هكذا يتقدم بشجاعة لا مثيل لها ويقذف الرعب في من لا قلب له.

* * *

الانتفاضة أعلى من الكلام.. أعلى من الكتابة.

جسد المنتفض يحقق الكتابة في أعلى درجاتها، يحقق النص وشكله المتجدد، يحقق الفنون كلها في لحظة استثنائية يتحد فيها الحب والشهادة والغضب والحلم، ويغدو المستقبل والحاضر والماضي عائلة واحدة في بيت واحد هو جغرافيا الوطن.

الجسد، نافراً ومتعامداً، ضد خط السكوت الأفقي، يقف مثل سؤال عسير أمام رشاش الخوف ودبابته وعدو يتحصن في وجر حديدي.

الجسد يتحول سؤالاً قاسياً أمام الرصاص، ولأنه الأقوى يختبر الرصاصة ويدحض «الإجابة التوراتية» ويهزمها في الصميم؟

جسد خالص، وجهاً لوجه، أمام عين الحديد التي لا يرى العدو إلا من خلالها.

جسد المنتفض في تلك اللحظة الخارقة والاستثنائية، يقترح، ويؤسس لكتابة جديدة، كتابة بالجسد ذاته لتحير كتاب الهوية والأرض والإنسان والمعنى والتاريخ والحاضر والمستقبل، لتحرير العَلَم ليرفرف بجناحين من حرية واستقلال.

جسد المنتفض يؤسس في الأرض حريته المقبلة، ويؤسس شمسه وكواكبه، الجسد في مواجهة عين النار.. الجسد حيث الطبيعة تكون امتداداً له. يقف ثم ينحني مثل قوس وتلتقط اليد حجراً هو مفردة من قاموس قوة الطبيعة. ثم ترسم الذارع قوساً من الأرض إلى الهواء، وبشحنة الحق والإرادة والتحدي، يرجم المنتفض عدوه بالحجر.. يرجم العدو الماثل أمامه.. وفي الوقت ذاته، يرجم فكرة الاحتلال.

الرجم هنا فعل لا يقف عند الحدود الرمزية، كما في بعض الطقوس، إنه رجم المحتل وفكرته، إنه فعل حقيقي تماماً، رجم الظلم والظلامية.

رجم «الوقواق الصهيوني» وآلته العسكرية وفكرته الاستعمارية ووجوده غير المشروع.. إنه رجم للجثمانية المعادية أيضاً.

جسد المنتفض ينحني ليقبل الأرض، أمه الكبرى، انحناءة التحية والتزوّد من الطاقة الكبرى. ينحني لأنه يحب وطنه.. وليرجم الغريب الذي يحمل في داخله فناءه.

جسد المنتفض يرقص في الهواء الطلق رقصة الحرية.. حيث يحرر الحجر ليتحول من مفردة بدائية إلى مفردة جديدة. فللحجر تاريخه المرتبط بالإنسان منذ القدم، وقد تعددت وظائفه وهيئاته، كان يقطع الأغصان، ويقطف الثمار العالية، وكان يصرع المفترس، وكان دفتراً منقوشاً بسيرة الإنسان، وكان قلادة عروس، وطاحون حبوب، وكان جداراً لمأوى، ومرسماً بدائياً، وباباً، وكان قوساً على مدخل معبد، وكان مذبحاً وحرزاً وصورة إله قديم، وحصناً ومقعداً لعاشقين، وشاهداً على الزمان. كان ناووساً

وفانوساً وفأساً ودرجاً وسجناً وعتبة ولقمة في فم منجنيق. وكان علامة في طريق، وقنطرة وجسراً فوق ماء واحد، وبين أرضين، وكان تمثالاً ونافورة وكرّاس سحر ومستودع أسرار.
الحجر صار قنبلة الطبيعة في يد طفل فلسطيني يرجم الطاغوت.
الحجر أعلى من الكتابة.. أعلى من الكلام..
والشمس تشرق من حجر.

2000/10/22

---

* شاعر فلسطيني يقيم في الشارقة – الإمارات.